

مهام المترجمان العسكري ودوره في فهم الآخر بالجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي

The Missions of the Military Translator and his Role in Understanding the Other in Algeria under French Occupation

رضوان زكي مختاري

مخبر تعليمية الترجمة وتعدد الألسن

معهد الترجمة، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر

mokhtari.redouane@univ-oran1.d

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول: 2025/12/27

تاريخ الاستلام: 2022/04/19

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مسألة حساسة في ميدان الترجمة واللغات بحيث نعتبرها في غاية الأهمية والتي تتمثل في فهم الآخر عبر فهم لغته وثقافته وطريقة عيشه، وقد انصب اهتمامنا على مهام المترجمان العسكري في الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي والدور الذي قام به في تحقيق التواصل بين الشعبين الجزائري والفرنسي؛ غير أن هذه المهمة اكتنفها الكثير من الغموض والصعوبات اللغوية والغموض الدلالي والتحديات المستعصية. وقد صعب العمل إذا علمنا بأن هناك لهجات محلية في جميع أنحاء الجزائر مما زاد من صعوبة عمل المترجم سواء على مستوى الإدارات أو المحاكم أو المعاملات اليومية، وكلما برزت الصعوبات اللغوية كلما تعقدت عملية الانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى، وأصبح من الصعوبة بمكان حتى بالنسبة للمترجم المحنك، وعندما يتعذر الفهم لا يتم نقل الرسالة بصورة صحيحة.

لقد شمل البحث نقطة لا يستهان بها والمتمثلة في طريقة حل المشاكل اللغوية من طرف الإدارة الفرنسية عبر إنشاء المكاتب العربية والتي كانت تعتقد (الإدارة الفرنسية) بأنها الأنسب، غير أن السير الكرونولوجي لهذه المكاتب في تلك الفترة الزمنية لم يحقق الهدف المرجو منه على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة من قبل الترجمة.

وقد خلص البحث بجملة من الإجراءات اتبعتها الإدارة آنذاك من أجل الوصول إلى نتائج مرضية وحلول ملموسة على أرض الواقع.

الكلمات المفتاحية: مترجم عسكري؛ مهام الترجمة الفورية؛ الفهم؛ الغموض اللغوي؛ التواصل الجيد.

Abstract :

The aim of this academic study is to examine the significant role played by military interpreter missions and their various impacts in Algeria during the French colonial period. The study mainly seeks to explore the tasks, difficulties, challenges, and issues faced by interpreters in Algeria during this historical era.

In this study, we have examined historical events related to the organization of the interpreting profession by the French administration, tracing its development through several stages and approaches. Language proficiency was, and continues to be, a key factor in understanding the habits, customs, and ways of life of Algerian citizens. At that time, interpretation constituted the primary means of communication, operating across many villages and major cities throughout the country.

Although French decision-makers at the time sought to create a climate of effective communication by establishing the *Arab Offices*, with the aim of understanding and controlling native communities, military interpreters worked alongside judges to resolve issues related to recurrent legal and commercial matters in daily life.

The second aim of the paper is to provide readers with a general overview of communication between the two communities, with the objective of bridging the gap between them through effective communication. This is particularly important given that Algerian citizens use regional dialects across different areas of the country, with notable variations and ambiguities from one region to another.

Keywords : Military Interpreter ; Interpretaion Missions ; Understanding ; Language Ambiguity ; Good Communication.

.....

مقدمة:

إن البحث في مسألة ترتبط بالترجمة ومهام الترجمان أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر ليس بالعملية السهلة خاصة إذا علمنا بأن جل الكتب والمنشورات التي تتعلق بهذا الأمر لا زالت مخزنة في مدينة "برينيون" الفرنسية في مصلحة تسميها فرنسا بإدارة محفوظات الجزائر.

غير أن أهمية الموضوع دفعت بنا للبحث في عدة مكاتب والعديد مدن الجزائرية والفرنسية عن كل ما يتعلق بمهنة الترجمان العسكري ومهامه ونشاطاته وتحدياته والصعوبات التي كانت تواجهه أثناء تأدية مهامه من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية ومن اللغة الفرنسية إلى

اللغة العربية ,خاصة إذا علمنا بأن اللغة المستعملة في الجزائر آنذاك وحتى في وقتنا الراهن هي عبارة عن لهجات محلية تختلف باختلاف مناطق الوطن فما يقال في الشرق الجزائري قد لا نجده في الغرب وما هو مقبول في الشمال الجزائري قد لا يقبل في الجنوب 'و لعل هذه المفارقات كلها كانت حجرة عثرة أمام الأداء الجيد لعملية الترجمة الفورية والترجمة الشفهية أثناء هذه الفترة التاريخية من تاريخ الجزائر.

وتطرقنا أيضا في بحثنا إلى قضية تنظيم مهنة الترجمان العسكري والسياسة التي انتهجتها السلطات الفرنسية في التعامل مع هذه المهنة والتي يمكن القول بأنها كانت غير معروفة بالقدر الكافي آنذاك، مع الإشارة إلى الطريقة التي اتبعتها فرنسا في التواصل مع المواطن الجزائري في العديد من المجالات بغرض فهم الآخر. فالترجمان كان يقوم بعملية الشرح والتفسير والترجمة لجميع فئات المجتمع ولم تكن العملية بسيطة بل كان يشوبها الكثير من الصعوبات والغموض وانعدام الفهم من طرف أو من آخر في العديد من حالات.

ومن ثم انتقلنا إلى قضية حل مشاكل مهنة الترجمان العسكري والاقتراحات التي تقدمت بها الإدارة الفرنسية لتجاوز الصعوبات ثم وصلنا إلى خاتمة البحث التي تتضمن مجموعة من الاستنتاجات نترككم تطالعونها في نهاية العمل.

1- مهنة الترجمان العسكري:

يمكننا التصريح بالدور المهم الذي أداه الترجمان العسكري في الجزائر أثناء الاحتلال بوصفه عنصرا فعالا في عملية التواصل بفضل كفاءاته اللغوية والأدبية من جهة، وبفضل تمكنه من فهم العادات السائدة آنذاك من جهة أخرى. علما بأن عدد الترجمة في الفترة الممتدة من 1830 إلى 1870 لم يتجاوز 100¹، ويكفيهم فخرا أنهم قاموا بعمل جبار في تقريب سكان الجزائر بالمعمر الفرنسي، ومن ثم في نقل المعرفة وفي فهم القوات الفرنسية لهذه الأرض الجديدة بالنسبة لهم.

وإذا ما بحثنا في هذه النقطة بالذات سنجد حتما ترجمة يعملون مع المدنيين، وترجمة يعملون مع الجهاز العسكري، وقد ذكر في هذا الصدد الترجمان العسكري (1829 - 1888) "لوران شارل فيرو Laurent Charles Féraud " فيما يتعلق بالترجمة العسكريين ومساهمهم المهني ودون ذلك في كتاب يحتفظ به بمقاطعة فانسان Vincennes بمصلحة التاريخ بوزارة الدفاع.²

وفي واقع الأمر، إن الحاجة لفهم ومعرفة ما يحدث في الجزائر، أدت بالسلطات الفرنسية إلى التركيز على هذه الوظيفة التي تمكن المترجمان ليس من الترجمة فحسب، بل حتى من جمع المعلومات والتأكد منها في الميدان. وهذا ناهيك عن التمكن التام من اللغة العربية التي كانت تعتبر بمثابة مفتاح نجاح مشاريع المعمر، وبغية بسط نفوذه فقد عينت البعض منهم في مناصب أخرى مثل أساتذة اللغة وخبراء ينصحون الناس ويسرون أعمالهم.

1- تنظيم المهنة:

يمكننا القول بأن تفتن فرنسا لدور المترجمان أدى بها إلى تنظيم هذه المهنة والاهتمام بها بواسطة توظيف تراجمة من عدة جهات. فهناك من درس اللغات الأجنبية والدبلوماسية وهناك من تعلم اللغة العربية في المشرق العربي مثل سوريا أو مصر، وهناك من تم توظيفه في شمال إفريقيا وبالضبط في مدينة تونس العاصمة³، ممن درسوا اللغات الشرقية وحتى من نخبة العائلات التي كانت تخدم مصالح فرنسا في الخارج.

ولعل من بين هذه المجموعة من التراجمة هناك ما يقارب عشرون ترجمانا ممن شاركوا في الحملة التي شنتها فرنسا على مصر، ثم قدموا إلى الجزائر دون عقد مسبق يربطهم بالإدارة الفرنسية وربما، هذا ما أدى ببعض إلى تغيير الوجهة وتغيير المهنة. ونتيجة لذلك قرر اللواء "بياربرتزان" Pierre Berthezène في شهر فبراير 1831 تنظيم وتقنين المهن⁴، ثم شرعت فرنسا في إدخال بعض التعديلات على هذا القانون في سنة 1833⁵، ومن ثم عرفت اهتماما واسعا سنة 1838 لأن هذه المهنة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالنشاط البوليسي والمحافظة على النظام العام⁶.

وقد عرف هذا الجيل من التراجمة عدة انتقادات بخصوص العجز اللغوي من جهة، والغش في الترجمة من جهة أخرى، وجراء هذه الوضعية المزرية شرع القائد العسكري بيليسي "Pélissier" في وضع تصنيف لرتب المترجمان حسب الكفاءات:

التصنيف الأول: خاص بفئة التراجمة التي تتقن اللغة الفرنسية دون اللغة العربية.

التصنيف الثاني: تتقن اللغة العربية ولا تتقن اللغة الفرنسية.

التصنيف الثالث: جمعت مجموعة من المغامرين لا تتقن أي لغة تذكر⁷.

إضافة لما سبق ذكره فإن المترجمان "أوفيب دوصال" "Eusèbe de Salle" وهو ترجمان عميل في هذه الحملة، صرح بأن ثلث التراجمة لا يتقنون اللغات الأجنبية عامة واللغة العربية

خاصة، وأنهم يجدون صعوبات لا تعد ولا تحصى بخصوص الفهم الصحيح للغة المستعملة في الجزائر التي تختلف عما تعلموه في باريس على يد المشاركة⁸. وقد لا نبالغ إذا قلنا إن اللهجة المستعملة في الجزائر صعبت من مهمة الترجمان في المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي، وهذا بغض النظر عن مكان تكوينهم سواء كان ذلك بباريس أو مرسليليا أو مصر أو سوريا.

2- نحو الفرنسية:

لقد حاولت القوات الفرنسية جاهدة تحسين صورة الترجمة التي طغت عليها ذهنية الغش والتحايل، إلى جانب عدم الإلمام التام باللغة العربية، فسعت إلى توظيف تراجمة هم في الأصل من خريجي مدرسة اللغات الشرقية الكائنة بباريس وبالفعل تم توظيف العديد منهم نذكر الترجمان دوسيتراست دو ساسي " de Sacy " Desitrestre " الذي كان يتقن اللغة العربية ولديه ثقافة عربية واسعة، كما تم توظيف ترجمان آخر قادم من مدينة طنجة وهو الترجمان جاك دوني دولابورت " Jacques Denis Delaporte " كونه عرف بتجربة واسعة في ميدان الترجمة إلى جانب حكمته وورزانتته.⁹

وفي واقع الأمر، اتصلت الإدارة الفرنسية بترجمان آخر هو الترجمان لويس جاك بريني " Louis Jacques Bresnier " وهو الذي تتلمذ على يد " Desitrestre de Sacy " وأسس ما عرف آنذاك بالمؤسسة العمومية للغة العربية بالجزائر العاصمة، وهذا بهدف تقويم مهارات الترجمة العسكريين وتحسين تكوينهم.

وقد كانت نظراته مختلفة عن تلك المرتبطة بحصر وظيفة الترجمان وتخصيصها للفرنسيين، ودون الأهالي الأصليين¹⁰، فقد سعى إلى توظيف عدد كبير من الترجمة الجزائريين، كما قام بتصنيف جديد تمثل في إحداث منصب ترجمان عسكري خاص بالضباط، ومنصب طالب ترجمان ومنصب ترجمان مساعد.

وفعلا تم قبول هذا التصنيف سنة 1845 من منطقة الترجمة العسكريين، كما تم إدراج شروط جديدة لمن يرغب الالتحاق بهذه المهنة، نذكر منها ضرورة إجراء مسابقة قبل التوظيف إلى جانب حيازة الجنسية الفرنسية من أجل التثبيت في المنصب.¹¹

يمكننا القول في هذا الصدد بأن السلطات الفرنسية قامت بالتركيز على تنظيم مهنة الترجمان بالجزائر حتى تغلب على الحاجز اللغوي التي كانت تعاني منه، ومن ثم الفهم الصحيح

للمواطن الجزائري وعندما تفهمه فهما صحيحا (حسب اعتقادها) فإنها تتحكم بسهولة كبيرة في أفراد المجتمع.

3- المترجمان بوصفه عنصرا فعالا في التطور:

لما أصبح للمترجمان مكانة معترف بها في المجتمع أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، برز دوره في ضمان نجاح عدد كبير من العمليات العسكرية¹²، وسهلت عليه مهمة فهم طريقة عيش الأهالي حيث صرح في هذا الصدد المترجمان العسكري "فيرو" Féraud :

« C'est par la langue seulement qu'on peut apprendre à connaître les usages, le caractère et la constitution d'une société demeurée sans archives »

" إن اللغة وحدها كفيلة بأن تجعلنا نفهم الآخر وندرك عاداته وطريقة تشكل مجتمع ما خاصة في ظل غياب الأرشيف " الترجمة لنا.

وفي واقع الأمر، إلى جانب عمله اليومي داخل المكاتب العربية، أصبح المترجمان ينشر كتباً باللغة العربية حتى يتسنى للأوروبيين فهم هذه اللغة من جهة، ومن جهة أخرى، نشر كتب اللغة الفرنسية حتى يتعلمها الأهالي الأصليون¹³.

ساعد حضور الترجمة في المنظمات والهيئات تطور تاريخ الجزائر ونذكر على سبيل المثال: المؤسسة الأسبوعية لباريس التي تأسست سنة 1822، وكانت تهدف إلى تطوير الدراسات المشرقية، وكذا المؤسسة الخاصة بعلم الأثرية لمقاطعة قسنطينة التي تأسست سنة 1852، والمؤسسة المكلفة بكتابة تاريخ الجزائر التي رأت النور سنة 1856.

لقد انخرط عدد لا يستهان به من الترجمة في المؤسسة الأسبوعية، ولا يتسع المقام هنا لنذكر العديد منهم، وسنكتفي بذكر واحد اشتهر اسمه بهذه المؤسسة وهو "وليام ماك كوغن" William Mac Guckin de Slane (1801 - 1878) الذي عرف مسارا متميزا كونه كان قريب الجنرال "بيجو" « Bugeaud » واحتفظ بمنصب مترجم رئيسي لعدة سنوات وقام بترجمة كتاب البكري المعنون ب: " وصف لإفريقيا الشمالية " وأعمال ابن خلدون¹⁴

وقد نذكر في هذا السياق أن أبحاث بعض الترجمة كانت بمثابة البوابة التي نهل منها باحثون آخرون مصادرهم لمواصلة أبحاث أخرى مثل " ايميل فيليكس كوتي " Emile Félix

Cautier الذي تشبع بأبحاث الترجمان "دولان" Deslane لبناء نظريته على الشعب الجزائري والأقلية البربر.¹⁵

وفي الحقيقة، فقد تطورت الحياة اليومية في الجزائر مع تطور الترجمة، وتزايد عدد الكتب المطبوعة، والتي كانت في غالبيتها ترجمات، من سنة لأخرى وشرع الترجمة في مضاعفة اهتماماتهم باللغة العربية ودراستها بدقة وتمعن، ونذكر في هذا المجال الترجمان "لويس ليميني" «Louis Luminet» الذي أنجز عملا كبيرا بخصوص قيمة الحروف الأبجدية الخاصة باللغة العربية¹⁶

ويمكننا القول في الوقت الراهن إن عددا كبيرا من الترجمة ساهم في التفتح والتطور من خلال ما تم ذكره، لأن مهامهم كانت متعددة، وأصبح البعض منهم ينشر مقالات لا تعد ولا تحصى في عدة مجالات مثل : " المجلة الإفريقية" Revue Africaine على يد عائلة من الترجمة نذكر منهم "جورج بيلي ماسلان بوسي" George Bulled Marcelin Baussier (1821- 1873) و"هنري فيديمان" Henri Federman (1823 - 1872) و"انطوان ارنو" Antonie Arnaud (1835 - 1910) والذي هو في الأصل والد المترجم والكاتب "روبرت راندو" Robert Randau وبالفعل شارك الترجمة في عمل جماعي هو عبارة عن اللبنة الأولى للتأريخ في هذا الميدان 'وذكروا فيه الحقبة التاريخية القديمة والفترة الإسلامية.¹⁷

ولا بد في هذا المقام من الإشارة إلى ترجمان متألق تقلد عدة مناصب، وتقرب من الأهالي المسلمين في الجزائر ألا وهو الترجمان "هنري رميذا" "Henry Rémusat" وقام بترجمة أعمال المؤرخ محمد بن أبي دينار القيرواني وقام بمراجعة العمل المترجم كل من الأستاذ الترجمان المترجم "اوجين بليسي" "Eugene Pélissier" والمترجم "رينو" "Reyaund" في طبعته السابعة الخاصة بالأعمال العلمية في الجزائر المخصصة للأبحاث التاريخية والجغرافية.¹⁸

ولا يختلف اثنان إذا صرحنا أن مهمة الترجمان هي مهمة مزدوجة؛ فهي لا تنحصر في عملية جمع المعلومات بخصوص الأرض الجزائرية، واللغة العربية وتاريخ هذا الشعب، وتقديم كل ذلك إلى الشعب والجيش الفرنسي فقط، وإنما هناك مهمة أخرى تندرج في إطار ما يعرف بنشر التقدم والرفق عبر تدريس اللغة الفرنسية واللغة العربية.

وبالفعل، فقد توجت هذه المجهودات بصدر مجلة "المبشر" التي كانت تصدر باللغة العربية والفرنسية سنة 1847 إلى جانب النتائج المشجعة التي برزت خاصة في المدرسة القرآنية

بمدينة باتنة تحت إشراف مترجم المكتب العربي الذي كان ينحدر من المنطقة¹⁹، ثم تطرقت المجلة لميادين أخرى على غرار التاريخ والرياضيات.

ولعل بعد هذا البحث المنجز بخصوص دور الترجمان العسكري في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، يمكننا أن نصرح بأهمية هذه الوظيفة والعمل الجبار الذي قدمته في تطوير المجتمع آنذاك وتحريك نشاط النشر، إلى جانب تعايش وتلاقح جاليتين (الفرنسية والجزائرية) في الجانب الثقافي والعلمي والصحافي.

ولا مراء أن هذا العمل استدعى جهدا وخطة محكمة تتناسب وذمنية تلك الفترة الزمنية، ولما كانت كذلك حققت نجاحا واسعا في تبادل المعارف وفي فهم الآخر وحتى التحكم في تحركات الحياة اليومية للأهالي الأصليين.

ويمكننا في هذا المقام القول بأن الترجمان كان بالفعل بمثابة عنصرا فعالا في التعريف بمهامه من جهة وتطوير حركة النشر من جهة أخرى.

II - المكاتب العربية:

عرفت الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي إنشاء هيئة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها هيئة عسكرية في سلمها الهرمي، وفي طريقة تسييرها وتعاملها مع القضايا المطروحة أمامها. لم تكن هذه الهيئة وليدة عمل منظرين أو أخصائيين، بل فرضتها حتمية ظرفية متمثلة في إيجاد طريقة مناسبة للتعايش مع السكان الأصليين في مختلف أنحاء الجزائر، والذين يتحدثون بلغة مغايرة عن اللغة الفرنسية وقد سميت هذه الهيئة "بالمكاتب العربية" "les bureaux arabes".

1- إنشاء المكاتب العربية:

في حقيقة الأمر، إن إنشاء المكاتب العربية جاء بصورة حتمية، فالجيش الفرنسي بجندته ومصالحه واستعلاماته لم يستطع العمل بطريقة ملائمة لأنه اصطدم بواقع لساني مغاير للغة التي يستعملها كل الضباط آنذاك، مما فرض عليهم الاستعانة والاعتماد كليا على مترجمين ينقلون لهم أقوال عامة الناس في مدن مثل الجزائر العاصمة، ووهران، وسطيف وغيرها من المدن.

ونتيجة لذلك بدأت فرنسا في تكوين عسكريين يتقنون اللغة العربية، وفي هذا الصدد نذكر بعض الأسماء المعروفة على سبيل الذكر لا الحصر الضابط: لاموريسيير Lamoricière والضابط بليسي Pélissier والضابط فرجي²⁰ Ferdji

ومع حلول سنة 1833، وبغية الخروج من العزلة التي وجدت فرنسا نفسها فيها قرر الجنرال أفيزار " Avisere " إنشاء مكتب خاص بمعالجة قضايا العرب. ثم بعد فترة قصيرة قام الجنرال "دوروا" " Doriat" بحل هذه المكاتب، وعين العسكري المقدم "ماري مونج" Marie Monge " في منصب أغا مكلف بشؤون العرب، لأنه كان متمكنا من اللغة العربية، وعادات وتقاليد الأهالي في منطقة الجزائر العاصمة إلا أن هذا الأمر عرف عصيانا ورفضاً من سكان المنطقة.

ومع حلول سنة 1837 تم تعيين العسكري "بيليسي" Péliissier مديراً عاماً مشرفاً على قضايا العرب لمنطقة الجزائر وضواحيها، وترأس هذه الهيئة لمدة سنتين، ولم تعرف نجاحاً يذكر في هذا الميدان.

عندما قرر الجنرال "بيجو" Bugeaud التربع على مجمل الأراضي الجزائرية أصبح لزاماً عليه وضع منهجاً مطبقاً على المسلمين في الجزائر، وبدأ بتأسيس "مديرية الشؤون العربية" " La Direction des Affaires Arabes " والتي كلفت بفض النزاعات بين مختلف القبائل، إلى جانب ضبط معلومات سياسية وعسكرية عن كل ما يحدث في هذه المناطق.

وبالفعل تم صدور قرار وزاري بتاريخ 01 فبراير 1844، جاء لتنظيم المكاتب العربية، ثم زودها الجنرال بيجو بترسانة من المراسيم، وبالتعليمات لتحديد المهام والصلاحيات والسياسة المتبعة في المكاتب العربية وفي واقع الأمر، تم الفصل بين القضايا الإدارية والقضايا العسكرية، وتم إنشاء مديرية الشؤون العربية، ومكتب عربي من الدرجة الأولى في كل مقاطعة ومكتب من الدرجة الثانية في كل منطقة مهمة محتلة.

ومع بداية سنة 1845 قام الرائد "دوما" Dommas الذي كان مسؤولاً عن المديرية العامة لهذه الهيئة بسن قانون الإجراءات الإدارية والقضائية مطبق على مختلف القبائل، وفي هذه السنة شرعت القوات الفرنسية في التقسيم الإداري للجزائر، فوضعت تسمية منطقة التل ومنحت لها تسمية الإقليم المدني، ومنحت تسمية المنطقة العربية بالإقليم العسكري.

2- طريقة تسيير المكاتب العربية:

لقد سخرت فرنسا أموالاً طائلة، وتجهيزات جبارة لتسيير مضبوط لهذه المكاتب فوضعت في كل مكتب فرق عمل كانت مكونة من الفرق التالية:

- ضابط عسكري مكلف بتسيير المكتب بمساعدة عسكري أو اثنين.

- قاض مختص بالأمر القانوني.

- أمين مكتب يكون عادة ضابط صف.

- أمين مكتب عربي يسمى "خوجة" مكلف بالتحضير باللغة الفرنسية.

- ترجمان يقوم بعملية الترجمة.

- منصب شاوش.

- مجموعة صغيرة من العمال.

أما فيما يتعلق بالمهام الموكلة لكل واحد منهم، فقد كان الضابط العسكري يتكفل بالقضايا المدنية، أما القاضي فكان ينحصر عمله على تقديم نصائح وإرشادات قانونية بوصفه خبيراً في المسائل المرتبطة بالدين الإسلامي.

3- دور المكاتب العربية:

يمكننا القول بعد دراسة قمنا بها في هذا المجال، إن المكاتب العربية كان لها أثراً كبيراً في تغيير الوضع في الجزائر آنذاك وحتى في تنظيم الأهالي الأصليين لطريقة تعاملهم التجارية والقانونية اليومية. وقد ذكر في هذا الصدد الضابط "ريشار" Richard قائلاً - "يمكننا القول بأن المكاتب العربية كانت تجسد على أرض الواقع مجال أفكارنا في الجزائر". الترجمة لنا.

« Les bureaux arabes disait Richard : ce sont les jambes de nos idées »

وبالفعل استطاعت هذه المكاتب 'بفضل المترجمين أن تنال ثقة المسلمين في هذه الفترة التاريخية، إذ نقلوا إلى الأهالي مفاهيم جديدة لم تكن موجودة أو منتشرة أثناء الاحتلال التركي للجزائر، ونذكر عينة منها مثل مفهوم العدل ومفهوم الواجب ومفهوم الصرامة ومفهوم الإنصاف خاصة بين المزارعين ومفهوم المعاملات داخل أفراد المجتمع؛ حيث عرفت هذه الفئة نزاعات لا متناهية في عدة مناطق من البلد، قامت المكاتب العربية بدراستها وحلها بحكمة وفطنة دائمتين بحضور الترجمان الذي كان يشرح ويبسط الأمور للمتقاضين ويساعدهم على تجاوز الخلافات والمشاكل التي كانت تدوم عادة لفترة زمنية طويلة، وإذا بها أصبحت تحل في وقت قصير وبصورة نهائية كون الترجمان تبوأ مكانة محورية في هذه المكاتب واكتسب خبرة في فهم ذهنيات الأهالي عن

اختلاف مناطقهم، فالمشاكل التي عرفتها قرية ثنية الحد بمدينة تسمسيلت لم تعرفها مدينة باتنة أو مدينة عنابة كون البيئة مغايرة والمعاملات التجارية مختلفة.

4- مرحلة حل المكاتب العربية:

لقد عرفت المكاتب العربية انتقادات عديدة من فئة الفرنسيين التي صرحت بأن هذه المكاتب تسير بطريقة تعسفية، وبدون أدنى مراقبة تضبطها، كما عرفت بعض التجاوزات حملات صحافية واسعة بينت الاختلالات والمفارقات الموجودة في هذه المكاتب العربية.

وبطبيعة الحال لم يكن بوسع الإدارة الفرنسية حل هذه المكاتب في وقت وجيز، بل جرى ذلك على عدة مراحل وفي هذا السياق نذكر: مرسوم 24 ديسمبر 1870، ومرسوم 10 فبراير 1879، وقرارات 1884، و1885 التي قلصت تدريجيا من صلاحيات المكاتب العربية في شمال الجزائر ومنطقة الهضاب العليا.

لقد ساهمت المكاتب العربية في ترتيب وتنظيم الأدوار بالمناطق الصحراوية خاصة بعد إنشاء الأقاليم الجنوبية في 1902، وساهم الترجمان بقدر كبير في تطوير الحياة من عدة جوانب مثل الزراعة والأشغال العمومية، وكذا الصحة بفضل المهام الملقاة على عاتقه والتي كانت تساعد في التواصل والتفاهم.

في الحقيقة، تم استبدال المكاتب العربية بما يعرف "بالبلديات المختلطة" "Les Communes Mixtes" وما يمكن قوله في هذا المقام هو أنه ظهرت في فترة تاريخية حساسة من تاريخ الجزائر، اعتمد فيها على الترجمة في وظائفها ومهامها وغيّرت من ملامح الوضعية العامة للأهالي الأصليين في الجزائر.

يمكننا القول في نهاية البحث بأن السلطات الفرنسية حاولت فهم المواطن الجزائري بطريقة أقل ما يقال عنها أنها كانت سطحية من وجهة نظر القوة الحاكمة في تلك الفترة، غير أنها لم توفق في هذه العملية إلى المستوى الذي كانت تصبو إليه، كون جميع التراجمة تم تكوينهم إما في فرنسا أو في دول شرقية في معاهد وجامعات تدرس اللغة العربية. غير أن واقع الجزائر كان مغايرا تماما واللغة المستعملة في أنحاء البلد كانت تختلف والمفاهيم أيضا تختلف وطريقة العيش والمعاملات بين أفراد المجتمع ناهيك عن التبادلات التجارية التي كانت سائدة بينهم.

خاتمة:

بعد هذا العمل الوجيز في حقل مهام الترجمان في الجزائر إبان فترة حساسة من تاريخ هذا البلد المتعدد الثقافات واللغات، يمكننا أن نصرح بأن الترجمان قام فعلا بعمل لا يستهان به بغرض تقريب الطرف الفرنسي من الطرف الجزائري، والطرف الجزائري من الطرف الآخر. ولم تصبح اللغة حاجزا بين الجزائريين والفرنسيين بفضل تواجد عدد كبير من الترجمة بل أصبحت الأمور سهلة، وهذا خاصة عندما قدم من فرنسا عدد كبير من الترجمة سخرها حياتهم لفهم الآخر، وتبسيط الأمور للعسكري الفرنسي حتى تتمكن فرنسا من التحكم في زمام الأمور -حسب تفكيرها-، والتحكم في مجريات الأحداث التي كانت تحدث في عدة مناطق من البلد.

كما توصلنا إلى خلاصة مفادها بأن الترجمان ساهم بشكل واسع في تحريك عملية النشر وثقافة الكتاب والمطالعة، مما سمح بتعايش الجزائريين والفرنسيين في المجال العلمي والثقافي والصحافي خلال هذه الحقبة الزمنية، علما بأن الكتب المنشورة باللغة العربية كانت هي الأخرى متوفرة في مدن مثل الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة وعنابة وغيرها من المدن الكبيرة من الوطن الحبيب وبلغ معدل القراءة نسبة لا يستهان بها.

كما ساهم الترجمان في تغيير الوضع بالجزائر بصورة عامة، وفي الجانب القانوني والحياة اليومية بصورة خاصة، كونه قام بنشر مفاهيم جديدة لم تكن موجودة أثناء الهيمنة التركية على الجزائر، ونذكر في هذا المقام على سبيل المثال لا الحصر، مفهوم العدل والإنصاف بين المزارعين، ومفهوم الواجب، وقضية الصرامة في العمل والالتزام بالتعهدات أمام أفراد المجتمع.

وتبقى عملية الترجمة هي الأساس الذي يسمح بالتحاور والتفاهم بين المجتمعات والدول الناطقة بلغات مختلفة، مهما اختلفت الحقب الزمنية ومهما تعددت الأسباب التاريخية التي أدت إلى هذه الوضعية. فالترجمة كانت ولا تزال في خدمة المجتمعات التي سمحت لمختلف المجموعات السكانية من تتواصل فيما بينها، لأننا نعتقد بأن التمكن من لغة أجنبية والوصول إلى مستوى لسانی معين يمنح للفرد فهم أسرارها وضبط قواعدها وإدراك كل كبيرة وصغيرة هي نقطة ايجابية تسمح لصاحبها بفهم الآخر فهما صحيحا وفهما كاملا.

الهوامش:

1. كان عدد الترجمة في سنة 1876 يعادل 77 ترجمانا (41 مرسما و36 مساعدا).

2. Laurent Charles Féraud «Les interprètes de l'armée d'Afrique» Archives du corps, suivi d'une notice sur les interprètes civils et interprètes judiciaires d'Alger, année non mentionnée.

3. من بين الترجمة التي وظفهم الإدارة الفرنسية في تونس العاصمة، نجد المترجمان مملوك باي يوسف، ومن كان معه من عائلات تعمل في التجارة الدولية وهم من أصول مختلفة : فرنسية، إيطالية وحتى مالطية.

4. قام اللواء برتزان بتنظيم المهنة بتاريخ 12 فبراير 1831 حيث قسم رتب المترجمان، حسب الرتبة العسكرية المتحصل عليها ووضع تباينا في الراتب الشهري لكل رتبة، غير أن هذا القانون لم يدم لمدة زمنية طويلة.

5. عرف بنظام فوارول، وقد احتفظ بالترتيب نفسه الذي وضع سنة 1831 إلا أنه قلص من رواتب الترجمة، انظر:

Jules Baruck, Historique du corps des officiers interprètes de l'armée d'Afrique, Constantine, Brachan 1901.

6. أظهر قانون 1838 جليا توجه الإدارة الفرنسية إلى تفضيل توظيف ترجمة جدد بمعايير أحسن مما كان مطبق سابقا، وعرف أيضا إضافة رتبة جديدة فانتقل الأمر من 4 رتب إلى 5 رتب.

7. Extrait manuscrit de Laurent Charles Féraud reporté sur un exemplaire des interprètes (collection particulière)

8. Eusèbe de Salle (1832). Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger (1830), roman historique, Paris, Gosselin, vol I, P 436.

درس هذا المترجمان بمدرسة اللغات الشرقية وانتقل بعدها إلى مصر، ثم عين سنة 1833 في الجزائر العاصمة، وتقلد منصب مدير المكتب العربي، ثم بعد مرور سنة عينته الإدارة الفرنسية ليعمل في القنصليات.

9. تعرض لهذه المسألة Féraud في كتاباته " الترجمة "

10. هو عبارة عن مرسوم صدر بتاريخ 4 فبراير 1854، حيث تطرق بوضوح لقضية تثبيت المترجمان الحائز على الجنسية الفرنسية، أما البقية وخاصة العرب فكل ما كان يتحصل عليه هي وظيفة مترجمان مساعد لا أكثر.

11. Laurent Charles Féraud, les interprètes, op. cit,

12. Laurent Charles Féraud, les interprètes, op. cit, P 372.

13. نشر أوقيسست مارتن حوارات بين العرب والفرنسيين كما قام بوضع صفحات خاصة بالنطق السليم باللغة العربية سنة 1847.

14. لقد قام بترجمة كتاب "العبر" وبسطه في شكل كتاب عنوانه ب: "تاريخ البربر والأسر الحاكمة المسلمة لشمال إفريقيا"، كما قام بترجمة كتاب المقدمة في جزأين:

15. L'islamisation de l'Afrique du nord, les siècles obscurs du Maghreb, Paris , 1917.

16. النسخة الفرنسية لمجلة المبشر، العدد 191، 15 أوت 1855.

17. نجد ضمن هذا السياق كتاب: التاريخ المختصر لفرنسا لصاحبه أوغيسست مارتن الصادر باللغة العربية سنة 1863.

18. كما نذكر ما صدر عن جامعة مونبوليه، نوفمبر 2009.

19. Les manuels des écoles arabes françaises dans l'Algérie coloniale (1850 - 1870).

20. Les bureaux arabes, document n° 10 de la série politique Paris, le 10 novembre 1947 rubrique institutions mise sur site le 15-08-2011.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

مختاري رضوان زكي. (2016) أثر الشريعة الإسلامية في ترجمة القانون المدني بالجزائر/ قانون الأسرة الجزائري أنموذجاً. أطروحة دكتوراه دولة. جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، وهران، الجزائر.

المراجع الأجنبية:

Baruck Jules (1901), Historique du corps des officiers interprètes de l'armée d'Afrique, Constantine, Brachan.

Eusèbe de Salle (1832). Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger (1830), roman historique, Paris, Gosselin, vol I.

Féraud Laurent Charles, « Les interprètes de l'armée d'Afrique » Archives du corps, suivi d'une notice sur les interprètes civils et interprètes judiciaires d'Alger, année non mentionnée.

Gautier Emile Felix (1927). L'islamisation de l'Afrique du nord, les siècles obscurs du Maghreb. Publisher Payot, Paris.

Larzul Sylvette (2017) Les manuels des écoles arabes françaises dans l'Algérie coloniale (1850 - 1870). Institut des Mondes Africains.

Les bureaux arabes, document n° 10 de la série politique Paris, le 10 novembre 1947 rubrique institutions mise sur site le 15-08-2011.